العِبرة والعَبرة

رائـد شـرف الديـن

ذكرى عاشوراء ٢٠١١
قاعة الإمام زين العابدين (ع)
٣ كانون الأول ٢٠١١| العبّاسية - لبنان

باسمه تعالى
الحمد لأهله والصلاة على أهلها،

السلام على الأعزة المتمسكين بحبل أهل البيت عليهم السلام.

وأنا ألبي دعوة أبي علي لأتنسم معكم أرج أهل البيت العطرة إنما تدفعني إليها المشاركة بالذكرى الحسينية من ناحية، ولشعور بأن العلاقة معه أسبق وأعمق من علاقتي الشخصية ليصل خطها البياني إلى علاقات مع الأب والعمّ والجد. من هنا نرى أن الماضي يبقى حاضراً في يومياتنا بعبره وخبراته وتجاربه وقضاياه، وحضور الماضي عادة للإقتداء والإعتبار، وتجديد صيغته بما يناسب العصر، دون أن يمس بمبدئية العلاقة.

من المثل المباشر لشخص واحد (الله يطول عمرك يا حاج أبوعلي) عاش تجربة علاقة مع أجيال أربعة، ومع كل جيل شكل مختلف من العلاقة كذا الدخول إلى موضوع جلستنا هذه التي لها في عمق التاريخ تبدلات ومتغيرات في الشكل، ولكنها تبقى محافظة على الغرض الأساس.

سأتناول في موضوعي اليوم كلا الأمرين: المتغيرات الشكلية، والتطورات في الوصول إلى الغرض.

أولاً : في الشكل

الشيعة في العالم يحيون الذكرى الحسينية في المحرم الحرام أفراداً ومؤسسات. البعض يكتفي بالأيام العشرة الأولى من المحرم، والبعض يحييها حتى العشرين من صفر، ذكرى أربعين إستشهاد الإمام الحسين (ع). منذ متى كانت هذه المجالس؟ وكيف رتبت هذه المجالس؟ وتمتد سلسلة التساؤلات حتى تصل إلى لطم الصدور، وضرب الظهور بالسلاسل وجرح الرؤوس واستنفار الدم بباطن السيوف، مما نشاهده هنا وفي العراق وإيران، غير المشاهد المختلفة في باكستان والهند وأفغانستان. وكلها موضع انتقاد منا، ومثار نقاش فقهي عند العلماء. كل هذا يقع على المظاهر دون السؤال عن بداية وأسباب هذا المظهر أو ذاك، والمظهر الذي نشاهده يفرض علينا أن نطرح أكثر من سؤال أولها: ما هي أغراض الفعل؟ ثم هل هذا الشكل المتَّبع يحقق الأغراض؟ وإن هي فعلياً ممثلة للأغراض؟ وهل مجتمعنا القائم لا يزال مسيس الحاجة لها؟ وألا يحتاج إلى تعديل أو تطوير أو استبدال؟

قد تفيد لملمة شتات الأخبار المتواترة عبر التاريخ في محاولة فهم المعنى والهدف من الذكرى الحسينية واستمرارها حتى الآن وإلى ما بعد. فلو كان الأمر مرتبط بالمناسبة، لانتهى بانتهاء حرارتها أو- على أبعد حد- إلى سقوط النظام الأموي، وتولي العباسيين. ولذا نرى بأن من أسس المآتم ومن نظم الأشعار الفصحى والأزجال، إنما كان يقصد بلوغ ثورة ضد أنظمة الفساد وكل أنواع الظالمين وأشكال الظلم. وقد أبدع السابقون الذين أوجدوا الوسيلة المناسبة لتعطيل مفاعيل إعلام السلطة التي أعقبت الإستشهاد الكربلائي المدوي بفتوى قضاة السلطان القائل بأن الحسين (خرج عن حده فقُتل بسيف جده). والحد المقصود هو أنه خرج عن شرعية إجماع الأمة بمبايعة يزيد بالخلافة. هذا الإعلام الذي أبطله جزئياً مسار السبايا، وكان من غباء القوة وزهو الإنتصار الذي توهمه رجال أمية أنهم أطالوا الطريق التي سيِّرت عليها السبايا ليعتبر الأقوام بعاقبة من يخرج على السلطة، فيما يصطف الناس ليروا سبايا الخارجين على الخليفة، كانت كلمات زينب تقلب السحر على الساحر، بمجرد معرفة أن السبايا من أسباط الرسول.

حدثَ عبر التاريخ تراكم وتطوير وتعديل وتبديل في مراسم إحياء الذكرى تبعاً لتبدّل الأمكنة والزمان، وما لبثت أن أخذت بعدها بالإنحدار حتى وصلت إلينا على مستوى التخلف والترداد

البغاوي الذي نعيشه في بعض المجالس الحسينية السائدة التي تجعل كل غاياتها تباكي الناس، أو إبكاءهم، بحجة الأجر، وترداد لـ "يا ليتنا كنا معكم".
هناك ما يشبه الإفراط في إيلاء الشكليات كلّ هذا الاهتمام، بل هي طغت على المضمون وطمسته. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحدّ، إنما تجاوزه إلى الضد. فابناء الطائفة الشيعية يتوارثون معاني عاشوراء ورمزيتها بألف طريقة وطريقة. وعقيدتهم راسخة، لا تزعزعها شائبة من هنا أو تجاوز من هناك. ما يقلق هو تأثير المراسم العاشورائية الهجينة على أبناء الطوائف الأخرى، لا سيّما في بلدان مختلطة مثل لبنان. ويمكن مقاربة الإشكالية من أكثر من منظور:

- منظور أول، تعيش المنطقة كلّها في لجّة ساخنة من الاضطراب والتغيير، وهناك مخاطر جدية من انزلاق الأوضاع نحو صراع طائفي مقيت. والعديد من الحكام "المحشورين" لن يتوانوا عن دفع الأمور بهذا الاتجاه إذا شعروا أن صراعاً كهذا يمكن أن يطيل في عمر صولجانهم، ولو لأيام معدودات. جميلٌ جداً أن يكون إحياء عاشوراء إحياءاً لانتصار الحق على الباطل، وتوكيداً لمقولة "لا" للطغيان والجور. أما أن تتحوّل الذكرى إلى "فرصة" تُنتهز لتوكيد التمايز عن الآخر، والتشهير به لأنه امتداد لذاك الحسب والنسب.. ، وأن يُجرى التركيز على نكأ الجرح القديم، وكأن الأوان قد آن لتصحيح الخطأ التاريخي والاقتصاص من الجيل الحالي ممّن "ليسوا معنا"، فهذا، بقناعتي وعقيدتي، خروج سافر على جوهر الرسالة الحسينية، وقذف للناس في أتون الاقتتال العبثي والنزاع الجماعي؛

- منظور ثانٍ بعض قرّاء المجالس، تأخذهم الحماسة والنخوة، وتنطلق بينهم مسابقة أو مزايدة في إضفاء الجو العجائبي والخرافي على ملحمة الحسين وصحبه. هي بالأساس جوهرة ملحمية بكامل عناصرها لا يجوز أن ينتقص منها أو يضاف عليها ما ليس فيها. إنّ تلك الإضافات تسيء إلى الحسين وصحبه، وإلى الرسول ودينه، وإلى الله عزّ وجلّ. لأن فيها دعوة صريحة إلى الخلق بأن يذعنوا للخرافة، ويتجردوا من عقولهم، والله عرف بالعقل.

- منظور آخر، هي أن حرف كربلاء عن جوهرها و"تغطيسها" بهذا الكم من البدع والبذخ والمبالغات والشكليات، يسيء إلى رسالة الحسين وإلى صورة الحسين وكل من تبعه وتلاه. وهو تشويه لا يخون الماضي وحسب، لكنه يهدد الحاضر والمستقبل ويقضي على كل فرص التجسير والتواصل التي يمكن للشيعة أن ينسجوها مع مواطنيهم من أتباع الطوائف الأخرى. وإذا كان واجب على كلّ مؤمن أن ينشر ويعمم الرسالة الحسينية، فإن تمنياتنا على الوعاظ

والشيوخ والقراء أن يساهموا في إرساء الأرضية الصالحة والأجواء الملائمة عبر تعميم المفردات الجامعة، والتركيز على مفاهيم الحق والإخاء والعدل والإيثار والتضحية والكرامة والوفاء والإبراء والصبر والصفاء والسخاء، والتي لأجلها استشهد الحسين ومن معه.

ثانيا: التطورات في الوصول إلى الغرض

هنا آتي للنقطة الثانية من البحث، والتي أتصور أن السابقين مارسوا فعلها بما يناسب وعي القيادة آنذاك ومستوى إدراك الجماهير في تحريك العواطف ورفع درجات المعرفة، يعني جمع العقل والعاطفة وتوسل حركة التواصل بحيث يتم نشر الرسالة الحسينية من ناحية، والتأطير من ناحية أخرى، وهو دليل على وجود مجهودات ضخمة بذلت، وعقول إبداعية حافظت على طاقة الاستمرار أربعة عشر قرناً.

انسجاماً مع ثقافة العصر ومتطلباته، اخترت أقوالاً على سبيل المثال، ولست اقترح منهجاً متكاملاً . لأننا إذا أردنا أن نتطَور ونطوّر فعلى كل منا أن يساهم بتقديم نموذج لنشكّل معاً نهراً دافقاً من العطاء والتأمل والأمل.

آخذ أولاً العبارة الحسينية المثيرة للتأمل: (ألا إن من خرج معي استُشهِد، ومن لم يخرج لن يبلغ النصر). عبارة تثير الإرتباك في تقبلها. فما دام العارفون لحق الله ورسوله، والمجاهدون والذين حملوا دماءهم على أكفهم قبل أن يحملوا السيوف؛ وما دام كل منهم قد أعار الله جمجمته - هم الخارجون مع الإمام الحسين- وهم جميعاً يقتلون، فمن يبقى بعد ليسير في طريق الفوز والفتح؟

لعلّ الصحوة الحسينية التي نشهدها في غير مكان، هي الدليل على أن كربلاء لم تكن مجرّد مأساة بلا أفق، وأنّ موت الحسين وصحبه كان غرسةً عزيزة بل سرمديّة، أورقت وأينعت نهجاً ورسالة. ثمّ ماذا نقول عن ثورات "الربيع العربي" ودون الغوص في الكثير من الإشكاليات والهنّات. ما أكتفي بذكره هنا، هو أن خروج الناس العزّل ورفضهم لجور السلطان وطغيانه... هذا الرفض الأعزل إلاّ من الإرادة، ينضح برحيق حسيني وينبض بحرارة رسالته ومجد موقفه. هنا نعود لمبدأ رسمه الإمام الحسين يحدد فيه قواعد حركته بالقول: (فوالله ما خرجت أشراً ولا بطراً، ولا ظالماً ولا مفسداً. إنما أريد الإصلاح في أمة جدي، أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر). نلاحظ أنه نفى عن نفسه الغرض الشخصي والنفعي، مستعملاً الأسلوب المرسوم لنا

في الشهادة بالواحدنية لله بأن ننفي عنا الإرتباط بأي إله بالقول أولاً: (لا إله) فنستعمل النفي لندخل إلى الواحدنية بالإستثناء (إلا الله).

وعليه يلزمنا أن نطور أساليب التعامل في تغيير ما بأنفسنا، وإلغاء البطر والظلم والمفسدة في نفوسنا، فالخط الواصل بين الحاضر والزمان الآتي الموصوف بتغيير ما بأنفسنا لنستطيع إيجاد جيل آخر يدخل التغيير في نظامه البنيوي. فعملية الإصلاح في الأمة تعني شمول كل ما هنالك من فساد في الأمة على جميع الصُّعُدِ.

ختاماً، استشهاد الحسين وصحبه هي قصة المجد والجلال والعطاء.
جدوى التاريخ وأحداثه هو مقدار ما يحدثه من مفاعيل وآثار في الزمن، أي في انعكاسه على مفاهيم الناس وسلوكياتهم.

الزمن الراهن متخم بألف مظهر من المظالم والمفاسد.

فما أحوجنا إلى جوهر السيرة الحسينية نبراساً نستدل بقبسه سواء السبيل!

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.